نصوص اللغة
وقانون الأضداد

محمد الخافي

تهدف هذه الدراسة إلى طرح أصول نظرية جديدة في اللغة مستندة على معطيات قديمة جداً وبسيطة جداً، وتتلخص هذه النظرية في مفهوم محوري عام هو مفهوم النص اللغوي الذي يبدو منه بكل وضوح، أن اللغة نص متكامل يتضمن رسالة واضحة وخطاباً محدداً ينبغي معرفته وتحديد موقعه منه وعلاقته بنوعين آخرين من النصوص يمثل الأول كل ما يؤلفه ويبدعه الإنسان من نصوص أدبية وفلسفية وقانونية وعلمية..... ويمثل الثاني نصوص أخرى، ولو لم تكن اللغة في أصلها نصاً لما استطاع الإنسان أن يؤلف من مفرداتها المتناثرة نصوصاً منطوقة ومكتوبة يعبر فيها عن آرائه وأفكاره ويتواصل بها مع الآخرين.

والإنسان عندما يؤلف نصاً ما مهما كان صغيراً (كلمة - جملة) لا يعمل في الواقع سوى على تقليد اللغة ومحاكاتها، وذلك لأن الأصل في اللغة هو وحدة النص وليس وحدة المفردات، ولهذا فالكلمات التي نؤلف منها نصوصنا الخاصة هي في الأصل قد انتزعت من أماكنها داخل نص لغوي طبيعي.

وضعية الألفاظ والمفردات في اللغة أشبه بوضعية الحروف داخل الكلمات. ومعلوم أن الكلمات هي معانٍ تنشأ من جراء تأليف مجموعة من الحروف داخل لفظ واحد. أما معاني اللغة فهو ما يتحصل لدينا من جراء تفاعل الكلمات مع بعضها البعض نتيجة التحامها في تركيبة نسقية واحدة تصبح فيها الكلمات كأنما هي أحرف داخل

معانٍ.. والحروف إذا كانت مستقلة تحافظ على معانيها الخاصة بها: معانيها المحدودة والمبهمة فهي عندما تضاف إلى بعضها البعض وتركب في كلمة تفقد معانيها الفردية لفائدة معنى أو معاني الكلمة التي تكونت منها.

نفس الشيء بالنسبة للكلمات ذاتها التي تظل محافظة على معانيها الخاصة بها مادامت مستقلة عن بعضها البعض، لكنها عندما تصاغ في تركيبة واحدة تنشأ منها حينئذ معانٍ أخرى من مستوى أعلى، الشيء الذي يعني أن معاني المفردات متناثرة هو فقط أدنى شكل من أشكال اللغة التي تزداد معانيها، وتتضح وتكتمل كلما كبر محيطها واتسعت قاعدتها.. إذا كانت اللغة نصاً فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف هي طبيعة هذا النص، وما هي الأفكار التي يحتويها وكيف يمكن الحصول عليه.

أول خطوة ينبغي القيام بها في هذا الصدد هي تلخيص اللغة وتخليصها من التكرار الذي يطبعها، أجل فإن في اللغة تكراراً كثيراً، وحذف التكرار ليس نقصاً من اللغة بل هو زيادة فيها، إنه نقص من ألفاظها من أجل الزيادة في معانيها، بل هو تمزيق لجثث الألفاظ من أجل الكشف عن أرواحها. ويتم تلخيص اللغة بنفس الشكل الذي يتم به تلخيص الأصوات الهجائية للحروف داخل الكلمات من شكل: (ميم دال راء سين) إلى شكل: (مدرسة).

وهنا عند الانتقال من الشكل الأول إلى الشكل الثاني ثم الانتقال من القراءة الفردية المستقلة إلى القراءة الجماعية الموحدة، ومن الغموض إلى الوضوح أو من عدم المعنى إلى المعنى، وتم الانتقال كذلك من الأصوات الهجائية الكثيرة التي تشغل مساحة كبيرة ولا تعني أي شيء إلى أصوات قليلة تشغل فقط مساحة صغيرة وتدل على معانٍ واضحة.

ومن المعلوم أن الحروف الهجائية تتكرر سواء داخل الكلمة الواحدة أو داخل مجموع الكلمات التي يتكون منها معجم اللغة، ورغم تكرارها فالحروف الهجائية قليلة ومحصورة العدد في نظام أبجدي أصبح الآن ممكناً بفضل المعطيات التي بين أيدينا ضبط عدد حروفه وتحليلها بطريقة رياضية.

للغة نظام أبجدي ولها أيضاً نظام معجمي أو نظام ألفاظي يتكون من عدد قليل من المفردات التي تعتبر بمثابة الكلمات الأصول أو الأصلية الجامعة للمعاني الكلية في اللغة.

إذا كنا نفهم من التكرار تكرار الألفاظ داخل اللغة الواحدة والنموذج اللغوي الواحد فإن التكرار أيضاً هو تكرار في النموذج والأنساق اللغوية ذاتها وذلك لأن من مقتضيات مفهوم النص في اللغة هو توحيد الحروف في كلمات وتوحيد الكلمات في نص وتوحيد الأنساق اللغوية المختلفة في خريطة لغوية واحدة، نقول خريطة لغوية، لأن اللغة خريطة فعلاً وداخلها تتعدد مواقع الكلمات بدقة متناهية مشكلة بذلك شبكة مواصلاتية بديعة هي أشبه بشبكة التواصل في المراكز العصبية العليا إن لم تكن هي في الشبكة ذاتها، وذلك لأن من المبادئ الأساسية التي يطرحها مفهوم النص في اللغة هو تفسير نوع العلاقة الموجودة فيما بين الألفاظ، حيث إن كل كلمة تؤسس لنفسها علاقات متعددة بشكل مباشر أو غير مباشر مع بقية المفردات من خلال مجموعة من المسالك والقنوات حتى إن تفسير الكلمة الواحدة قد يتطلب تفسير اللغة بأكملها.

إن العلاقة بين النماذج اللغوية ليست علاقة جوار وتجاور، لأن اللغات لا يوجد بعضها خارج بعض، وإنما يوجد بعضها داخل بعض وفي قلبه. وإذا كان السائد حتى الآن أن العلاقة بين النماذج اللغوية علاقة جوار، فلأن هذا الجوار هو أساس العلاقة السائدة بين عناصر

ومفردات اللغة الواحدة، ولهذا فنحن نكتشف وحدة النماذج اللغوية بشكل تلقائي عندما نكون بصدد توحيد عناصر ومفردات النموذج اللغوي الواحد. وإذا كان التفكير إنطلاقاً من مجموع النماذج اللغوية أو من لغة موحدة يتيح لنا فرصة استغلال جانب كبير من إمكانيات اللغة فإن توحيد اللغة هو أصلاً اكتشاف هذه الإمكانيات داخل اللغة الواحدة والنموذج اللغوي الواحد، وقد سبق أن رأينا أن معاني اللغة تزداد وضوحاً وكمالاً كلما اتسعت قاعدتها وكبر محيطها.

اللغة نص من أجل اكتشافه لابد من القيام بعملية تلخيص لمفردات اللغة، ولا يمكن القيام بهذا التلخيص إذا لم نعرف نوع العلاقات الموجودة بينها.

تأليف اللغة في نص تلخيص المفردات وتفسير نوع العلاقات الموجودة بينها.

كل هذه الشروط موجودة في قاعدة عامة من قواعد اللغة العربية هي المعروفة اصطلاحاً بنظام الاشتقاق الذي يمكن إجمال وضعيته في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة في النقط الثلاث التالية:

1 - الاشتقاق عند اللغويين ثلاثة مستويات:

- الاشتقاق الصغير وهو الذي تتغير فيه أوزان الكلمة وتفعيلاتها: كتب مكتب كاتب مكتبة.

- الاشتقاق المتوسط وهو الذي تتغير فيه رتب حروف الكلمة الواحدة:

ABC. ACB. BAC. BCA. CAB. CBA

- الاشتقاق الكبير، وتتغير فيه إضافة إلى ما سبق الحروف الأصلية في الكلمة بحروف أخرى قريبة منها في المخارج الصوتية.

2 - الكلمات التي ترجع بالاشتقاق إلى أصل لغوي واحد تظل حاملة لمعنى الجدر الذي تفرعت عنه بالإضافة إلى معانٍ أخرى جزئية متخصصة تشكل شخصية كل فرع على حدة داخل عائلته الموحدة، ومن هنا ذهب اللغويون إلى أن الاشتقاق كله ترادف.

3 - الاشتقاق بهذه الأوصاف المذكورة يعتبر سمة من سمات اللغة العربية واللغات السامية عموماً.

لقد كانت هذه هي خلاصة اجتهادات قدامى فقهاء اللغة العربية الذين اعتمدوا منهج البحث التجريبي الاختباري، فأين هي اجتهادات المعاصرين؟..

إن أشهر طريقتين للكتابة والقراءة هما:

1 - الكتابة من اليمين إلى اليسار.

2 - الكتابة من اليسار إلى اليمين.

إلى جانبهما وجدت طريقة ثالثة تقرأ وتكتب فيها الأسطر من اليمين واليسار معاً، حيث يقرأ السطر الموالي من حيث انتهت قراءة السطر الذي قبله. بالإضافة إلى هذه الأنواع من الكتابة الأفقية وجدت كذلك الكتابة العمودية التي كانت سائدة في القديم ومازالت بعض آثارها موجودة إلى الآن. كل من الكتابة الأفقية والعمودية لا غنى لإحداهما عن الأخرى، فنحن ننتقل من كلمة إلى كلمة أفقياً وننتقل من سطر إلى سطر عمودياً لتعذر الكتابة في سطور طويلة جداً.. الأمر الذي يفيد أن كل كتابة أفقية تتضمن في ذاتها كتابة عمودية وكل كتابة يمينية أو يسارية تتضمن في ذاتها الكتابة المقابلة لها، وفيما يلي تفسير للموضوع من خلال هذا المثال الذي نختاره في الأحرف الثلاثة ل ب س:

ل	ل	ب	ب	س	س
ب	س	ل	س	ل	ب
س	ب	س	ل	ب	ل

ل	ب	س
ب	س	ل
س	ل	ب

ويمكن أن نلاحظ أن الجدول الكبير تفسير للجدول الصغير، وهذا الأخير تلخيص للأول، ورغم صغره يحتوي الجدول الصغير على نفس المعلومات الموجودة في الجدول الكبير، ويكفي لتحقيق هذا قراءة الجدول الصغير من جهاته الأربعة: يمين يسار أعلى أسفل. المعلومات الواحدة والاختلاف الظاهر في حجم الجدولين يبين أن المساحة التي تسع كلمة واحدة يمكن أن تسع كلمات عديدة الأمر الذي يفيد أن اللغة لا تحتاج في وجودها إلى مفهوم المساحة، وإذا انعدمت المساحة كشرط في اللغة فإن مفهوم الحدود بين اللغات بدوره يسقط ويتهدم، ولهذا نجد أن الاشتقاق ليس فقط سمة من سمات اللغة العربية واللغات السامية وحدها كما ذهب إلى ذلك المختصون، وإنما هو أمر عام في كل اللغات بدون استثناء. حيث تقوم الجذور بتوزيع فروعها داخل مختلف الأنساق اللغوية.

والاشتقاق هو الذي يمنحنا فرصة قراءة الكلمة الواحدة من اليمين ومن اليسار ومن كل الاتجاهات وذلك لأن تغيير رتب حروف الكلمة هو في أصله تغيير لاتجاه قراءتها كما لاحظنا ذلك في المثال المذكور في الأحرف الثلاثة: ل ب س.

ل ب س، ل س ب، ب ل س، ب س ل، س ل ب، س ب ل

وإذا لاحظنا أن الجدر الذي يحتل الموقع السادس هو أبعد عن الجدر في الموقع الأول. فهذا في الواقع مجرد خداع بصري لأن مفهوم البعد يحتاج إلى مفهوم المساحة، وهذه كما سبق منعدمة في اللغة،

والصحيح أن الجدر السادس يحتل نفس موقع الجدر الأول إذا كان لدينا إمكانية القراءة من اليمين واليسار معاً: ل ب س. ولأن القراءة من اليسار إلى اليمين نظام يقع خارج نظام اللغة العربية مثلاً، لذلك فإن الكلمات أو الحدود التي تقرأ من اليسار إلى اليمين تعتبر مهملة وبلا معنى لأنها شذت عن قانون الكلمة المعهودة في العربية أو كل لغة يمينية، وهذا الأمر إن كنا نرفضه ونستنكره عند الوعي به فهو مع ذلك يجري به العمل وبهدوء تام من غير وعي، ونظراً لمؤهلاته الكبيرة فإن نظام الاشتقاق عوض أن يغير حركة عيوننا العربية المتجهة دوماً من اليمين إلى اليسار، فيجعلها تتحرك من اليسار إلى اليمين يكتفي بتغيير مواقع الحروف داخل الكلمات.. والملاحظ أن الجدور الستة المذكورة هي في الأصل كلمة واحدة تقرأ قراءات مختلفة ومتعددة من أجل اكتشاف عالمها بأكمله أو الأجزاء الكبيرة منه على الأقل وذلك لأن الكلمات مفردة ليست هي ذات اللغة وإنما هي نوافذ نطل منها على عالم اللغة، وفيما يلي نموذج جد مبسط لبعض دلالات ومعاني الأحرف الثلاثة ل ب س -

ل ب س	ل س ب	ب ل س	ب س ل	س ل ب	س ب ل
لباس		blouse	بوصلة		سبيل
laps		pelouse	boussole	سلب	(سبولة)
lapse		blesser	boussiller	Slip	سنبلة
lapsus		blese	بسالة	Sleep	Symbole
		plus	imbécile	Salopette	Simple
		police		صليب	Soupplesse
		إبليس		صلب	Supplément
		palace		Célébre	Suplier
		palais			Suplice
		plaisir			Exemple
		publicité			
		plaisanter			

ونكتفي هنا بمثال واحد ونختاره في لفظ سبيل وهو الطريق الذي يستعمل للمرور في معناه المادي والمنهج المنظم للحياة في صورته التجريدية.

وقريب من السبيل بهذا المعنى نجد لفظ Symbole وهو الرمز والعلامة والشعار... ولأنه يقال عن كل شعار إنه مثل، فلهذا نجد أن لفظ exemple يشكل لغة واحدة مع symbole ومشتقاته، ولأنه يقال عن كل شعار إنه مثل أعلى، فإن صفة العلو symbole وexemple يمكن ملاحظتها في القول المأثور: ضرب مثلاً: وضرب المثل هو رفعه ونصبه وتعليته حتى يصبح من علوه ظاهراً للجميع. ومن الضرب بهذا المعنى اشتق اسم العلم drapeau الذي هو رمز وشعار كل وطن يرفرف عالياً. ولأن ضرب الأمثال ورفعها إلى أعلى يكسبها سمعة وشهرة فلهذا نجد أن لفظ célèbre (مشهور ذائع الصيت...) يشكل لغة واحدة مع symbole وexemple ومشتقاتها. ثم نجد إلى جانبه لفظ publicité (إشهار)..

الأشياء التي تكسب شهرة وسمعة تكون قد توفرت لديها امتيازات تفوقت بها على غيرها، ومن هنا نجد أيضاً أن لفظ plus يشكل لغة واحدة مع سبيل symbole، exemple ومشتقاتهما، وإلى جانبه نجد أيضاً لفظ supplement (air) (إضافي مضاف...) هذه الإضافة والزيادة يمكن ملاحظة حضورها في لفظ لباس، إذ من المعلوم أن اللباس شيء مضاف وزائد عن حقيقة الجسد المادية.

إذا كان ضرب الأمثال يكون عادة للتوضيح والتبسيط فلهذا نجد من مشتقات exemple لفظ بسيط simple، صغة العلو في سبيل symbole، exemple يمكن ملاحظتها أيضاً في لفظ صليب، ومنه الفعل صلب بمعنى علق، وذلك كما في قول فرعون مهدداً:

﴿**ولأصلبنكم في جذوع النخل**﴾ دون أن ننسى أن الصليب في حد ذاته شعار مشهور..

يمكن ملاحظة صفة العلو أيضاً في لفظة سنبلة إذ من المعلوم أن من صفات وخصائص السنابل العلو والارتفاع.

وإذا كان كل سبيل (طريق) يحمل علامات للهداية والإرشاد، فلهذا نجد من مشتقاته لفظ بوصلة boussole وهي الآلة التي يمكن أن تحدد للسفن مثلاً في عرض البحر الاتجاه الذي ينبغي أن تسلكه كي لا تتيه.

الحديث عن الهداية والإرشاد والتوجيه يقودنا إلى الحديث عن لفظ إبليس الذي هو رمز وشعار الإغواء والتضليل، ومن هنا علاقته أو بعض علاقاته بلفظي سبيل symbole ومشتقاتهما... إذا تأكدت صفة العلو في لفظ سبيل ومشتقاتها فإن العلو حاضر بقوة في كل المرادفات المعنوية للسبيل والتي منها:

1 - الشارع وهو لغة واحدة مع الشعار والعرش، والشريعة والشعرى وهو النجم المذكور في قوله تعالى ﴿**وأنه هو رب الشعرى**﴾ وإلى جانبه نجد لفظ عشار وهي النجوم المذكورة في قول الله تعالى ﴿**وإذا العشار عطلت**﴾.

2 - ومنها الطريق. وصفة العلو فيه يمكن ملاحظتها في لفظ الطارق وهو النجم المذكور في قوله تعالى ﴿**والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب**﴾..

3 - ومنها السراط أو الصراط وهو لغة واحدة مع street (شارع). وصفة العلو فيه يمكن ملاحظتها في لفظ star (نجم) ولفظ astre (كوكب).

سبيل	..... symbole	
شارع	شعار (شريعة)	شعرى عشار
طريق	طريقة	طارق
سراط		astre star

ننتقل الآن إلى مثال آخر من أجل التنويع ونختاره في الحرفين (ف ن) ومنه الفعل Venir بمعنى جاء وهو يدل على صفة علو كما هو واضح من خلال صورته الاشتقاقية الأخرى وهي لفظ niveau (مستوى)، ومستوى كل شيء أعلاه.

والمرادف المعنوي الآخر للفعل Venir يدل بدوره على صفة علو وهو الفعل arriver بمعنى وصل. والصورة الصوتية العربية للفعل Aviuer هي الريف وهو كل حاجز مرتفع واشتهر استعماله للجبال خاصة.

ويمكن ملاحظة صفة العلو في المرادف المعنوي العربي للفعل venir وهو الفعل تعالى الذي يستعمل بمعنى أقبل ويستعمل بمعنى ارتفع كذلك... ويدل على هذا بوضوح الفعل طلع الذي يستعمل بمعنى جاء وذلك كما في الأثر الذي يقول فيه الراوي: (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يبدو عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد...) ويبدو من هذا أن الشخص الذي يقبل علينا كأنما هو يصعد في سلالم وأن الشخص الذي يتركنا كأنما هو يهبط فيها.

ومن المشتقات العربية للفعل venir والاسم niveau نجد لفظ أنف وصفة العلو فيه راجعة إلى كونه عضلة بارزة فوق سطح الوجه، ومنه يقال: الأنفة والكبرياء، ومقال منيف وهو الذي بلغ درجة عالية

في أسلوبه وأفكاره، ويدل على عكس هذا المعنى لفظ naïf بمعنى ساذج.

إلى جانبه نجد لفظ فن الذي يجمع في أفنان وهي البراعم والأغصان والعروش التي هي أعلى شيء في الشجرة، وفي فن الذي يجمع في فنون (arts) وصفة العلو فيه لا تحتاج إلى توضيح، ومن المشتقات الأخرى نجد الرقم neuf (تسعة 9) وصفة العلو فيه راجعة إلى كون الرقم 9 هو أعلى عدد في أبجدية الأرقام العشرة (0....9).

ومن المشتقات الأخرى نجد لفظ نفي (exil) وهو الإبعاد خارج الوطن أو بعيداً عن مسقط الرأس. وهو يحتاج إلى سلطة تقوم بهذا الإبعاد، ومن هنا صفة العلو فيه... أما صفة القول في النفي فراجعة إلى كونه بعد في المكان. والملاحظ أن كلاً من venir ونفي هما فعلان لحركتين متعاكستين.

والنفي كذلك يستعمل كضد للإيجاب (négation) وأدواته في غير العربية هي (ni. ne. no. non) ومن صورها الصوتية الأخرى نجد لفظ nine = neuf = تسعة = 9 (nie ⇐ no، neuf ⇐ نفي).

مثال آخر نختاره هذه المرة في الحرفين س ل ومنه السلالة التي تعني من جهة النوع والفصيلة وتعني المختار من كل شيء والمنتقى والمصطفى والعصارة... وتعني أيضاً الشيء القليل والصغير والدقيق.

والصورة الصوتية للسلالة في غير العربية هي لفظ Ceppupe وهي الخلية. ولعل السلالة بهذا المعنى الأخير هو ما جاء في قول الله تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾**. **﴿وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾** وإذا كانت سلالة الماء خلية فإن سلالة الطين تكون ذرة (atome).

مثال آخر نختاره في الحرفين ب س، ومنه الفعل بس كما في

قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿**إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباءً منبثا..**﴾ ومعنى بست الجبال هو انهدمت وتحطمت وتفسير هذا في الصورة الصوتية الفرنسية للفعل بس وهي الفعل baisser بمعنى خفض انخفض أحنى انحنى اندك.. ومعلوم أن انحناء الجبال المرتفعة لا يتم إلا إذا تحطمت وتصدعت واستوت بالأرض. ومن أشكال هذا الاستواء قوله تعالى: ﴿**فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا**﴾. ومن الصور الصوتية الأخرى للفعل بس نجد الفعل poser بمعنى: وضع نصب.. ويفسر هذا قوله تعالى ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت**﴾.

ومن الصور الصوتية الأخرى بعد الفعلين baisser ونجد الفعل poser بمعنى مرّ..... ويفسر هذا قوله تعالى ﴿**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**﴾.. وقريب من معنى الفعل passer نجد الفعل pousser بمعنى دفع ومن الآيات التي تندرج في سياق هذا المعنى نجد: ﴿**وسيرت الجبال فكانت سرابا**﴾ ﴿**وتسير الجبال سيرا**﴾. هذه الحركة المضافة للجبال على مستوى النص الديني موجودة كذلك كوصف ذاتي للجبال على مستوى النص اللغوي حيث نجد من مشتقات جبل الدالة على الحركة، الفعل جلب بمعنى نقل حوّل... وذلك كما في جلب البضائع، وجلب عليه في الحرب طرده أو طارده. ومعروف عند البيولوجيين أن سير الجبال ومرورها مرتبط بالحركة العامة للأرض وقاراتها. والقرآن بدوره قد ربط بين حركة الجبال عند نشأتها وبين تباعد القارات عن بعضها البعض وذلك كما في قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿**ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو**

كلم به الموتى﴾ ويبقى انفصال القارات عن بعضها البعض المعنى الواضح والمناسب لنص تقطيع الأرض...!

مثال آخر نختاره في الأحرف س ب ح. ومنه الفعل سبح وسبّح، هذه العلاقة بين الفعلين يمكن ملاحظتها في علاقة الفعل الإنجليزي to Suim بالفعل العربي صام ومن مشتقاتهما الأخرى نجد océan أمازون. زمزم. مزن.. سانية[2]... ويمكن ملاحظة نفس العلاقة في ثنائية الفعلين nager (سبح) ناجى (سبّح) ومنهما يشتق الفعل نجا ومقابله في الفعلين سبح وسبّح هو الفعل Sauver (se) والصورة الصوتية لهذا الأخير في العربية هي الفعل صفّ. ومنه الطير الصافة وهي المحلقة والسابحة في الفضاء ومنه سورة: الصافات التي جاء فيها قول الله تعالى: **﴿وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون﴾** والاسم مسبحون صورة مكررة للاسم صافون وتفسير له حيث أدمجت الحاء والباء في مسبحون في حرف واحد فانقلبتا صوتياً إلى حرف ثالث هو حرف الفاء، تماماً كما يمتزج لونان مع بعضهما البعض فينتج عنهما لون ثالث مخالف لأصليه، وذلك لأن اللغة لها بدورها أصوات وحروف أصلية أو أصول ترجع إليها مختلف الأصوات والحروف.

سبح ⇐ SABAHA ⇐ SAPAHA ⇐ SAPHA ⇐ SAUVER[3].

ولأن الفعل sauver هو فعل نجدة وإنقاذ. فإن النجدة والنجاة يمكن ملاحظتها في صورته الصوتية الفرنسية salut الذي يستعمل للتحية والسلام والسلامة والنجاة والنجدة.

وفي الخلاصة يمكن أن نسجل وباختصار إلى حين أن السباحة هي حركة العالم والتسبيح هو وظيفته ولأن السباحة والتسبيح يحيلان على عالم الماء. فإن الماء هو هوية العالم وورقة تعريفه التي تصف فيه أهم حركتين وهما: الحركة المادية والحركة الروحية.

مثال آخر نختم به ما سبق، ونختاره في الحرفين (ب ع) ومنه البيع والفعل باع Vendre. ومن الملاحظ أن لغة القرآن تطلق على أماكن عبادة غير المسلمين اسم البيع جمع (بيعة) وذلك كما في قول الله تعالى في سورة الحج: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً**﴾ والصوامع والبيع والصلوات والمساجد ألفاظ مترافدات وهي أماكن العبادة في مختلف الديانات المنزلة.

ونجد أن يوم الجمعة يحمل اسم البيع في صورته الفرنسية Vendredi (Vendre + di) (di = die = day = ضوء...).

وفي القراءة الفصيحة يصبح يوم البيع هو يوم البيعة. هذا الأمر يوضحه يوم الأحد في صورته الفرنسية حيث إن الأصل في dimanche هو (dimange) وهو يوم الأكل وفي القراءة الفصيحة اليوم الذي تحضر فيه ألذ وأشهى الأطعمة (fête)[4]، يوم السبت في صورته الفرنسية بدوره يحمل نفس الدلالة Samedi وهو يعني يوم الصوم الذي هو جزء من كل ويمكن أن ينوب الجزء عن الكل في الدلالة. ومن الملاحظ أن الله قد حرم على اليهود الخروج لصيد الأسماك يوم السبت.. ونعلم أن معنى الصوم الذي في السبت ليس هو الامتناع عن الأكل وإنما هو التوقف عن العمل. ولهذا كانت الأيام الدينية الثلاثة أيام عطلة وراحة، والسبت في أصله العربي يعني الراحة وهو مشتق من السبات الذي هو أقصى درجات الراحة ويكون ذلك في النوم خاصة.. ومعنى الراحة والعطلة واضح في يوم الجمعة في أصله الإنجليزي (fri + day friday) حيث أن الأصل في fri هو frée الذي يعني الراحة والفراغ.

ومن المعلوم أن العرب في جاهليتهم كانوا يعظمون يوم الجمعة اعتقاداً لا عملاً. وكذا كان اليهود على علم بمكانته الدينية، وهذه الأصول اللغوية المنحدرة من غير العربية تشهد بالطابع الديني ليوم

الجمعة من غير وعي من أهلها. إن خبر يوم الجمعة قد سبق في الوجود مثلما سبقت الأخبار المبشرة بالنبوة الخاتمة قبل بعثة الخاتم صلى الله عليه وسلم. ولما كان أهل الكتاب قد حذفوا من نصوص كتبهم الأخبار المبشرة بالنبوة الخاتمة. فإن هذه الأخبار المحذوفة والنصوص التي التوت أعناقها وقطعت رؤوسها قد عادت فنبتت من جديد ولكن هذه المرة في نصوص اللغة وذلك لأن نصوص الوحي هي الصورة الكاملة للغة، وهي تصدق الوحي وتنتصر له.

لغة الضاد لغة أضداد

في نصوص اللغة تتحدث اللغة عن نفسها بنفسها مفسرة ذاتها ومفسرة للإنسان الذي يقف مستمعاً باندهاش العالم من حوله. اللغة إذاً تفسر ذاتها بذاتها... في نصوص اللغة إذن نكتشف مقاصد خطاب لغوي لا دخل للإنسان فيه. لذلك فإن هذا الخطاب لا تتحكم فيه شروط ومفاهيم الزمان والمكان والجنس والعرق والسلالة.. عكس ما هو عليه الأمر في كل خطاب بشري يضعه الإنسان داخل زمان ومكان محددين وبلون لغوي معين لأن اللغة تبدو عالماً طبيعياً يتضمن حقائق عليا ومن مستوى رفيع لا يوجد لها مثيل إلا في الاكتشافات العلمية الحديثة وفي النصوص الدينية المنزلة. ولهذا السبب فإن اللغة بهذه الإمكانيات تعتبر مرجعاً طبيعياً محايداً ذا مصداقية يصف بصدق واقع العالمين الطبيعي والبشري في مختلف تجلياتهما، مصداقية يمكن أن تصل إلى مستوى مصداقية المنهج القادر على القيام بمراجعة وإعادة النظر في كيفية اشتغال العقل وإنتاجه للعلوم والمعارف والسلوكات الحضارية. وإن قانون الأضداد الذي عنونا به هذه الدراسة هو هذا المنهج ذي السؤال. ومفاد هذا القانون أن العقل يتكون من عنصرين متضادين... ولا يمكن الفصل بينهما... والعقل عندما يمارس

وظيفته يظل حاملاً لأثر هذا التضاد في تكوينه. فيعمل بعمل العقل واللاعقل لأنه يحمل في ذاته مرادفه وضده الذي هو مرادف عكس وذلك لأن الترادف نوعان: مرادف - مرادف، ومرادف - عكسي.

أما المرادف المرادف فهو ترادف خالص. وأما المرادف العكسي فهو يجتمع فيه الترادف والتضاد حقيقة أو وهماً في بنية واحدة لا يظهر فيها هذا التركيب المزدوج إلا إذا سلطنا عليها أشعة مجهر.

ونحن لا نراعي في العقل هذا التركيب المفخخ، وإنما نأخذه على أنه ترادف خالص. ولدى العقل جاذبية قوية لكي يغلب جوانبه السلبية على جوانبه الإيجابية ولا يمكنه مقاومة هذا الأمر اعتماداً على مؤهلاته الذاتية... ولهذا نجد أن العقل يتحرك حركتين مختلفتين: الأولى داخلية وتنطلق من الرحابة إلى الضيق، والثانية خارجية وتنطلق من الضيق إلى الرحابة إلا أن الحركة الداخلية يمكن أن تتمظهر في مظهر حركة خارجية وتتمظهر هذه في مظهر تلك وتبعاً لهذا نجد أن العقل يضيق في نطاق حركته حينما يعتقد أنه بصدد توسيعها ويحد من إمكاناته حينما يعتقد أنه بصدد إثرائها.

وعلى ضوء هذا يمكن أن نعيد النظر في كثير من المفاهيم التي تؤطر حياة الإنسان ومنها على سبيل المثال مصطلحات حرية حضارة مدنية تقدم تطور حداثة أصالة.

قاعدة المرادف وضده اقتبسناها من واقع اللغة، وقد سبق أن سجلنا أن اللغويين القدامى والمعاصرين قد خلصوا إلى أن الاشتقاق كله ترادف أما نحن فقد تبين لنا أن الاشتقاق ليس كله ترادف وإنما هو في نفس الوقت ترادف وتضاد، حيث إن كل كلمة تتكون بنيتها من عنصرين متضادين من منظور ومترادفين من منظور آخر، ولهذا نجد أن

كل كلمة لها مرادف أو مرادفات يمكن أن تكون حقيقة ويمكن أن تكون وهمية تتقمص شخصية المرادف وهي ليست كذلك بل يمكن أن تكون ضداً لا مرادفاً، وهذا هو ما يمكن تسميته بالترادف السلبي أو الفارغ، وكذا الشأن بالنسبة للمرادف العكسي فهو يمكن أن يكون تضاداً حقيقياً ويمكن أن يكون مجرد تضاد وهمي.

ولعلنا الآن نكون قد أدركنا أن خطورة الموضوع يمكن أن تأتي من تفسير الأشياء بأضدادها على أساس أنها مرادفاتها.

هذا باختصار هو مجمل ما نعبر عنه هنا بقانون الأضداد. إنه قانون لأنه نظام مطرد. وهو يعتبر لهذا السبب موقعاً استراتيجياً خطيراً لرصد حركة التاريخ والسلوك الحضاري.

الهوامش

1) وردت كلمة مزن في القرآن على أنها السماء أو سحب وذلك في قوله تعالى في سورج الواقعة (72) **﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾**.

2) من مشتقات الفعل sauver التي لها علاقة بعالم الماء نجد لفظ soif (= عطش).

3) دلالة العيد في يوم الأحد وغيره من الأيام الدينية الثلاثة يمكن ملاحظتها في الفرص التي يتيحها لتبادل الزيادات بين الأسر والأقارب والأصدقاء وما يتطلبه ذلك من كرم الضيافة.